الإعجاز النفساني في آية النوم والموت

أ.د. محمد المهدي- أستاذ الطب النفسي - مصر

mahdy1956@hotmail.com

" اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ " (الزمر 42) .

"اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ " (الزمر 42).

الله- سبحانه وتعالى- هو الذي يقبض الأنفس حين موتها، وهذه الوفاة الكبرى، وفاة الموت بانقضاء الأجل، ويقبض التي لم تمت في منامها، وهي الموتة الصغرى، فيحبس من هاتين النفسين النفس التي قضى عليها الموت، وهي نفس مَن مات، ويرسل النفس الأخرى إلى استكمال أجلها ورزقها، وذلك بإعادتها إلى جسم صاحبها، إن في قبض الله نفس الميت والنائم وإرساله نفس النائم، وحبسه نفس الميت لَدلائل واضحة على قدرة الله لمن تفكر وتدبر . **ومن الدلالة على أن الألوهية لله الواحد القهار خالصة دون كلّ ما سواه , أنه يميت ويحيي , ويفعل ما يشاء, ولا يقدر على ذلك أحد سواه، فجعل ذلك خبرا نبه الناس به على عظيم قُدرته. وقد ذكر في التفاسير أن أرواح الأحياء والأموات تلتقي في المنام , فيتعارف ما شاء الله منها.**

الله- سبحانه وتعالى- هو الذي يقبض الأنفس حين موتها، وهذه الوفاة الكبرى، وفاة الموت بانقضاء الأجل، ويقبض التي لم تمت في منامها، وهي الموتة الصغرى

فيحبس من هاتين النفسين النفس التي قضى عليها الموت، وهي نفس مَن مات، ويرسل النفس الأخرى إلى استكمال أجلها ورزقها، وذلك بإعادتها إلى جسم صاحبها

إن في قبض الله نفس الميت والنائم وإرساله نفس النائم، وحبسه نفس الميت لَدلائل واضحة على قدرة الله لمن تفكر وتدبر .

وهذا الذي يحدث كل ليلة من نوم وأحلام يعتبر معجزة كبيرة من الناحية العلمية , ولم يصل العلم بعد إلى كل أسرار هذه الظاهرة التي تتكرر كل يوم , فالنوم معجزة عظيمة حيث يتوقف الوعي بشكل جزئي مؤقت , ويفقد الإنسان شعوره بالزمن وتفاعله مع البيئة من حوله , ومع ذلك تبقى بعض الوظائف الفسيولوجية الحيوية لتحافظ على بقاء الإنسان , ويتم إصلاح ما تلف من الأنسجة والخلايا , والتخلص من النفايات والعوادم الكيميائية , وتحدث الأحلام بما تحويه من نصوص قصيرة وسريعة فيها من الرمزية والتحويل والتكثيف والإسقاط , والتصوير والتنفيس , وكأن المخ يقوم بعمليات إنتاج أدبي وفني كل يوم , ومن المعلوم أن الإنسان يقضي 20-25 % من وقت نومه في الأحلام ولكنه لا يتذكر إلا القليل منها .

ولنأخذ بعض مظاهر الإعجاز في هذه الآية :

أولا : مدخل إلى مفهوم الوعي في القرآن والعلم

الوعي هو أعظم ما يملكه الإنسان، وهو ما يجعله مدركًا لذاته والعالم , وفي القرآن، يُشار إلى الوعي من خلال مفاهيم النفس والروح والقلب , أما في العلم، فيُدرس الوعي من خلال نشاط الدماغ .

والنوم يمثل حالة انتقالية بين الوعي واللاوعي، وهو ما يجعله مفتاحًا لفهم هذه الآية .

ثانيا : النوم كتجربة انفصال جزئي

تشير الآية إلى أن النوم هو نوع من التوفي، أي قبض النفس جزئيًا . ومن الناحية النفسية، الإنسان أثناء النوم ينفصل عن الواقع الخارجي ويعيش تجربة داخلية كاملة . ومن الناحية العلمية، الدماغ يظل نشطًا، خاصة في مرحلة حركة العين السريعة , ، حيث تنشط مناطق الخيال والذاكرة وتنتج الأحلام.

ثالثا : النوم والموت – مقارنة تحليلية

النوم : توقف جزئي للوعي , مع نشاط دماغي مستمر , مع إمكانية العودة إلى حالة الوعي مرة أخرى بوجود مؤثر أو بدون وجوده .

الموت : توقف كامل للوظائف الحيوية , وانقطاع دائم عن العالم ليس له عودة .

وهذا يفسر قوله تعالى : " فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى "

رابعا : هل تسافر النفس؟

هناك ثلاثة اتجاهات :

1 – **ديني:** النفس قد تتصل بعالم الغيب بشكل لا نعلم كنهه ولا طريقته , وقد تنتج بعض الأحلام والرؤى من هذا الإتصال .

2 – **علمي:** الأحلام نشاط دماغي خالص ينتج عن بعض مراكز المخ وتتصل بالأحداث والذكريات والرغبات والأمنيات والغرائز والمخاوف , ومؤثرات البيئة المحيطة والبيئة الداخلية في الجسم .

3 – **توفيقي:** الدماغ آلة والنفس مدركة , فالمراكز المخية تعمل كوسيط بين عالم الشهادة وعالم الشهود (أي وسيط بين الغيب والواقع) .

خامسا : الزمن أثناء النوم

الإنسان قد يرى حلمًا طويلًا في ثوان أو دقائق , وهذا يدل على أن الزمن النفسي يختلف عن الزمن الفيزيائي , والإنسان حين ينام بعمق يفقد الإحساس بالزمن , لأن الزمن فرع الحدث , فإن لم يكن هناك أحداث فإن الزمن ينعدم الوعي به , وهذا يفتح بابًا لفهم الزمن في البرزخ فالإنسان حين يموت يفقد وعيه بالزمن حيث لا حدث , فهو لا يدرك آلاف السنين التي مضت بين موته وبعثه فكأنه حين مات دخل على البعث والقيامة مباشرة كالنائم الذي نام عدة ساعات ولكنه لم يشعر بمرور تلك الساعات , وكأهل الكهف الذين ناموا ثلاثمائة وتسعة أعوام ولكنهم حين استيقظوا ظنوا أنهم ناموا يوما أو بعض يوم , وربما يفسر هذا الأثر المشهور عن بعض الصحابة والتابعين : "من مات فقد قامت قيامته " , وهو أثر يعتبره العلماء صحيحا من حيث المضمون باعتباره "القيامة الصغرى " , ويقصد به أن موت الإنسان هو بداية انتقاله لعالم الآخرة , حيث ينقطع عمله ويبدأ حسابه .

سادسا : البرزخ وعلاقته بالحلم

قوله تعالى : "النار يعرضون عليها غدوا وعشيًا " , يشير إلى عرض وليس احتراق مادي مباشر , وهذا يشبه طبيعة الأحلام، حيث التجربة حقيقية إدراكيًا . إذن فعذاب أو نعيم القبر يكون في صورة عرض (ربما تكون مثل الأحلام) , لأن الله تعالى ذكر بعد ذلك مباشرة : " ويوم القيامة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب " , وهذا يؤكد أن العذاب الفعلي (الحسي المباشر) يكون يوم القيامة .

من الدلالة على أن الألوهية لله الواحد القهار خالصة دون كلّ ما سواه , أنه يميت ويحيي , ويفعل ما يشاء, ولا يقدر على ذلك أحد سواه

النوم معجزة عظيمة حيث يتوقف الوعي بشكل جزئي مؤقت , ويفقد الإنسان شعوره بالزمن وتفاعله مع البيئة من حوله , ومع ذلك تبقى بعض الوظائف الفسيولوجية الحيوية لتحافظ على بقاء الإنسان , ويتم إصلاح ما تلف من الأنسجة والخلايا , والتخلص من النفايات والعوادم الكيميائية

الوعي هو أعظم ما يملكه الإنسان، وهو ما يجعله مدركًا لذاته والعالم , وفي القرآن، يُشار إلى الوعي من خلال مفاهيم النفس والروح والقلب , أما في العلم، فيُدرس الوعي من خلال نشاط الدماغ

تشير الآية إلى أن النوم هو نوع من التوفي، أي قبض النفس جزئيًا . ومن الناحية النفسية، الإنسان أثناء النوم ينفصل عن الواقع الخارجي ويعيش تجربة داخلية كاملة

النوم : توقف جزئي للوعي , مع نشاط دماغي مستمر , مع إمكانية العودة إلى حالة الوعي مرة أخرى بوجود مؤثر أو بدون وجوده .

الموت : توقف كامل للوظائف الحيوية , وانقطاع دائم عن العالم ليس له عودة.
وهذا يفسر قوله تعالى : " فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى

ديني: النفس قد تتصل بعالم الغيب بشكل لا نعلم كنهه ولا

طريقته , وقد تنتج بعض الأحلام والرؤى من هذا الإتصال

الأحلام نشاط دماغي خالص ينتج عن بعض مراكز المخ وتتصل بالأحداث والذكريات والرغبات والأمنيات والغرائز والمخاوف , ومؤثرات البيئة المحيطة والبيئة الداخلية في الجسم

الإنسان قد يرى حلمًا طويلًا في ثوان أو دقائق , وهذا يدل على أن الزمن النفسي يختلف عن الزمن الفيزيائي , والإنسان حين ينام يفقد بعمق الإحساس بالزمن , لأن الزمن فرع الحدث , فإن لم يكن هناك أحداث فإن الزمن ينعدم الوعي به

الإنسان حين يموت يفقد وعيه بالزمن حيث لا حدث , فهو لا يدرك آلاف السنين التي مضت بين موته وبعثه فكأنه حين مات دخل على البعث والقيامة مباشرة كالنائم الذي نام عدة ساعات ولكنه لم يشعر بمرور تلك الساعات

كأهل الكهف الذين ناموا ثلاثمائة وتسعة أعوام ولكنهم حين استيقظوا ظنوا أنهم ناموا يوما أو بعض يوم

يفسر هذا الأثر المشهور عن بعض الصحابة والتابعين : "من مات فقد قامت قيامته

سابعا : الأحلام التنبؤية

هناك ثلاث اتجاهات في فهم الأحلام التنبؤية , أي التي يراها النائم في منامه وتتحقق كليا أو جزئيا في الواقع :

1 – علميًا: الدماغ يتوقع أشياء تحدث في المستقبل نتيجة حسابات دقيقة وربط بين تفاصيل الأحداث , ويكون ذلك ممكنا في حالة صفاء المخ أثناء النوم وانعدام عوامل التشتيت للوعي التي تكون موجودة أثناء اليقظة .

2 – دينيًا: الرؤيا الصادقة , وهي تحدث نتيجة تواصل بين النفس وعالم الغيب أثناء النوم , وهناك ذكر لمثل هذه الأحلام أو الرؤى في القرآن الكريم حدثت لبعض الأنبياء وحدثت أيضا لغير الأنبياء مثل حلم الريان بن الوليد (سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات) وحين فسرها سيدنا يوسف عليه السلام , كانت سببا لخروجه من السجن وسببا لنجاة مصر من مجاعة محققة .

3 – والجمع بينهما ممكن , حيث لا شك أن غالبية الأحلام تنتج عن نشاط مركز في المخ ولها صلة بالأحداث والذكريات والمؤثرات الداخلية والخارجية , وهذا لا يمنع أن يربط المخ بين تلك الأحداث في حالة صفائه وهدوئه أثناء النوم , ولا يمنع أيضا أن تكون ثمة رسائل غيبية لا نعلم كنهها ولا طبيعتها تصل إلى النفس البشرية أثناء قبضها حين تنام مصداقا للآية الكريمة " الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى .. " , وأيضا مصداقا للحديث الذي رواه عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال : " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن للشيطان لمة بابن آدم , وللملك لمة , فأما لمة الشيطان فإيعاد بالشر وتكذيب بالحق , وأما لمة الملك فإيعاد بالخير وتصديق بالحق , فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله فليحمد الله , ومن وجد الأخرى فليستعذ بالله من الشيطان الرجيم " (رواه الترمذي والنسائي , وصححه الألباني) .

ثامنا : النوم كتذكير يومي بالموت

ليس للإنسان عذر للكفر بالآخرة أو نسيان أو تجاهل الموت فكل نمر بتجربة مصغرة للموت فنفقد الوعي وندخل في عالم آخرمن خلال الأحلام والتي لم نعرف أسرارها بدقة حتى الآن , ثم نعود بعد ذلك إلى حياتنا الواقعية حين نستيقظ .

الخاتمة

هذه الآية تقدم نموذجًا فريدًا يجمع بين الدين والعلم والفلسفة، وتفتح أبوابًا لفهم أعمق للنفس الإنسانية .

وقوله في نهاية الآية : إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ " , يعني أن في قبض الله نفس النائم والميت وإرساله نَفس الميت إلى جسمها, وحبسه لغيرها عن جسمها لعبرة وعظة لمن تفكر وتدبر, وبيانا له أن الله يحيي من يشاء من خلقه إذا شاء, ويميت من شاء إذا شاء.

إرتباط كامل النص:
http://www.arabpsynet.com/Documents/DocAlMahdi-Sleep&DeathMiracle.pdf

**** **** ****

شبكة العلوم النفسية العربية

نحو تعاون عربي رقيا بعلوم وطب النفس

الموقع العلمي
http://www.arabpsynet.com/

المتجر الالكتروني
http://www.arabpsyfound.com